مجلة علمية دولية محكمة نصف سنوية
تصدر عن مخبر الدراسات النقدية والأدبية المعاصرة جامعة تيسمسيلت/الجزائر
ISSN 2571-9882 EISSN 2600-6987
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/297
Contemporary Studies is a bi-annual open access International double-blind journal. It is published by the University of Tissemsilt, Algeria.

المجلد: 05 / العدد: 02 / (2021)، ص188/202

الشرف القبلي وصناعة النموذج البطولي في العصر الجاهلي
(قراءة في نماذج من الشعر الجاهلي)

Tribal honor and the establishment of the heroic model in the pre-Islamic era (An interpretive attempt on examples of pre-Islamic poetry)

عبد القادر هني*
henni.abdelkader38@gmail.com
مخبر: الدراسات النقدية والأدبية المعاصرة
جامعة تيسمسيلت
(الجزائر)

أ.د. خالد تواتي
khaledtouati@gmail.com
جامعة تيسمسيلت
(الجزائر)

تاريخ الاستلام:2021/06/25 تاريخ القبول:2021/08/03 تاريخ النشر:2021/12/02

ملخص:

لم تكن أخلاق العربي في العصر الجاهلي إلّا منتجات صحراوية أفرزتها الطبيعة من خلال ثنائية الجدب/النّماء،حيث ساهمت الحياة البدوية في تطويرها وبلورتها من أجل أن يتكيّف معها الإنسان العربي في ذلك العصر،ولقد مثّلت فكرة الشّرف القبلي قيمة إيجابية تحدّدت من خلالها البطولات العربية وانضبطت معها القوانين والأعراف،وساعد الشّعر الجاهلي في تعميق هذه الفكرة وترسيخها في الوجدان العربي .ولقد جاءت هذه الدراسة لتكشف عن مفهوم الشّرف القبلي ودوره في التأسيس للنموذج البطولي في العصر الجاهلي،وتبرز علاقاته في تنظيم حياة الأفراد والجماعات،ومن أجل توضيح ذلك استعنت ببعض المختارات من الشعر الجاهلي.

الكلمات المفتاحية: الشّرف القبلي ؛ البطل ; البطولة ؛ الشعر الجاهلي ؛ الحياة البدوية.

Abstract:

The morals of the Arab in the pre-Islamic era were the result of the desert nature of the dialectic of drought and fertility, as Bedouin life contributed to the development of this dialectic in order to make the Arab person adapt to the conditions of his life in that era. The idea of tribal honor represented a positive value through which Arab heroic glories were determined, and laws and customs were aligned with it. Pre-Islamic poetry helped deepen this idea and consolidate it in the Arab conscience. This study came to reveal the concept of tribal honor and its role in establishing the heroic model in the pre-Islamic era, highlighting its relationships in

* المؤلف المرسل

organizing the lives of individuals and groups, and in order to clarify this, I used some anthologies from pre-Islamic poetry.
Key words: tribal honor ; heroism ; heroic person ; pre-Islamic poetry ; Bedouin life

توطئة:

يعدّ البطل حاجة ثقافية لكلّ أمّة،وضرورة اجتماعية لكلّ جماعة تسعى إلى ردم فجوات ماضيها أو إثبات حاضرها وتحقيق تراصها الاجتماعي،فغاية وجود الأبطال لا تكمن في ما يقومون به من أعمال خارقة أو أفعال تبدو مستحيلة في نظر الأشخاص العاديين،بل تتلخص في الرّمز الكامن في هويّة البطل وتكوينه ،هذه الرمزية التي تكفل للجماعة _ على رغم الانقسامات التي يمكن أن تصيبها_ سهولة الالتفاف حول ذلك البطل باعتباره نقطة توهج واستقطاب،وتضمن لهم روح التكافل الجماعي الذي يسعى إلى تحقيق الصورة المثالية أوالنموذج العالي للفرد أو المؤسسات داخل المنظومة الثقافية والاجتماعية لكل أمّةأو جماعة.

ولا يرتبط إعجاب النّاس بالبطل بزمن معين أو بجماعة محدّدة،وسواء كان البطل شخصية تاريخيّة تنتمي للواقع والتّاريخ أو شخصية نصّية تنتمي لعالم الورق والخيال؛فإنّ الناس في حبّه والإعجاب به شركاء.وإذا كان إعجابنا بأبطال العصور القديمة شديدا؛فهذا لأنّ النّفس البشريّة مجبولة على حبّ الماضي،وبتعبير سيغموند فرويدSigmund Freud (1856-1939م)فإنّ للعصور النائيات على المخيّلة سحرا أخّاذا،فما إن يدبّ اليأس في النّاس من الحاضر،حتّى يلتفتوا إلى الماضي آملين أن يلتقوا فيه من جديد بحلمهم الذي لم يغب عنهم قطّ،الحلم بعودة العصر الذهبيّ."[1]وإذا كان للبطل في الأساطير والحكايات القديمة القدرة على أن يحيل على يديه العادي والمألوف واليوميّ إلى أعاجيب خارقة للعادة،ويواجه وحده القوى الخارقة وينتصر عليها،كما بإمكانه أن يمنح الهبات والعطايا لقومه حين عودته من مغامراته الخفية،"[2]فهذا لأنّه كان يقدّم حلولا لتلك المجتمعات القديمة،وإجابات لأسئلة ماانفكّت تحيّر عقولهم،وعلى خلاف البطل الأسطوريّ فإنّ البطل العربيّ الواقعيّ/الخياليّ يقوم بمهمّاته في واقع الحياة،فهو بطل الصحراء، البطل الذي يتميّز بارتباطه الوثيق بالأرض وتوظيف مواهبه وقدراته في سبيل جماعته التي ظلّت تكافح من أجل البقاء داخل تلك الصحراء القاسية،ولقد ارتبط ذلك البقاء بمفهوم الشّرف القبليّ،لأجل ذلك ارتبط مفهوم البطل لدى العربيّ بالقيم العليا للصحراء،مثل الشّجاعة والفروسيّة والكرم والنّجدة وغيرها.

_الصحراء العربية وشرف القبيلة:

من الطبيعيّ أن يكون لهذه الطّبيعة القاسية أثر عظيم في تكوين شخصيّة العربيّ،وفي توجيه سلوكه العامّ، وصقل أخلاقه وتأصيل عاداته وطريقة تفكيره، ومن الطبيعيّ أن يساهم ذلك المناخ البخيل –إن صحّ لنا هذا الوصف– في استمرار جدليّة الجدب والخصب وتأثيرها على حياة السّلم والحرب، وربّما لهذا السّبب يرجع مونتسكيو Montesqieu(1689-1755م) اختلاف الأخلاق لدى المجتمعات الإنسانية إلى البيئة وظروف المناخ؛ففي اعتقاده أنّ عيوب الشّعوب تقلّ في الإقليم الشّماليّ بحيث يتمتّع أهلها بفضائل كافية، وبقدر كثير من الإخلاص والحرّية، بينما يتّسم سكان الجنوب بالابتعاد عن الأخلاق

الفاضلة، ويرى بأنّ الجرائم قد تكثر في البلاد ذات الأجواء الحارّة،وتكثر بذلك السلبيّة والرّكون إلى العبوديّة."[3]

إنّ صراع البقاء في أرض قليلة الموارد، شحيحة الأمطار، لم يكن لينفي عن سكانها الروح الإنسانية في التعامل مع بعضهم البعض أو مع الأخر، ففي الوقت الذي أنتجت فيه حياة البادية قوانين العصبيّة القبليّة وأعرافها تولّدت إلى جانب ذلك قيم الشّرف والأخلاق الإنسانيّة السّامية؛بما تحمله من مروءة وإيثار ونجدة وتسامح وكرم، كما أنكرت بقوّة كلّ الرّذائل كاللّؤم ،والبخل، وانتهاك الحرمات،وعدم الحفاظ على الجوار، ومن رحم هذا الصراع تحتّم أن يظهر بطل الصّحراء، ذلك البطل الذي أمكنه أن يجمع بين المتعارضات والمتناقضات.وبتعبير وهيب طنوس فإنّ بطل الصحراء يظهر بشكل رائع،فهو شجاع وقاس بالنسبة للأعداء، ويثق جدّا بأقربائه وأبناء قبيلته، وفي الحبّ يبكي سيولا من الدّموع عندما يقف عند الدّيار المهجورة، رغم أنّه في المعارك بطل مغوار لا يخاف، وهو يمضي عددا كبيرا من الأيام في الطريق الجافّ في التّيه والصحراء،حيث لا يوجد أحد غيره يقوى على ذلك، دون أن يشعر بالتّعب، ويشرب في مجتمع الأصدقاء والغواني."[4]مثل هذه الصور تتكرر كثيرا في الشعر الجاهليّ، وهي في نظر الباحث تتلاءم مع شخصيّة العربيّ الأبيّ الذي كان يحرص على الظّهور بهذه الصّفات التي تشعره بالفخر والاعتزاز،وتتفق مع حاجات الحياة البدويّة،يقول طرفة بن العبد:

إذا القومُ قالوا: منْ فتى؟ خِلتُ أنّني عُنَيتُ فلمْ أكسلْ ولم أتبلّدِ
فذالتْ كما ذالتْ وليدةُ مجلسٍ تُري ربّها أذيالَ سَحلٍ مُمدّدِ
ولست بحلّال التلاع مخافة ولكن متى يَسترفِد القومُ أرفِدُ
فإنْ تَبغني في حَلقةِ القومِ تَلقني وإن تقنَصني في الحوانيتِ تصطَدِ
متى تأتِني أصبحك كأساً روّيةً وإن كنتَ عنها ذا غِنًى فاغنَ وازددِ
وإنْ يلتقِ الحيّ الجميعُ تلاقني إلى ذُروةِ البيتِ الرّفيعِ المُصمّدِ [5]

حرّي بهذا الشعر وبهذا الفخر أن يجعل من صاحبه بطلا مثاليّا،يجمع بين تخوّف الأعداء منه وخوف الأقرباء عليه، في مجتمع لا يحتكم إلّا لمبدأ القوّة، وتهيمن عليه أعراف العصبيّة القبليةّ،مجتمع كما يصفه الشّاعر:

تَعدُوا الذئابُ على منْ لا كلابَ لهُ وتتّقي مربضَ المستثفر الحامي[6]

من الطبيعيّ أن تنتج الصحراء نظاما اجتماعيّا ينسجم مع طبيعتها،ويتلاءم مع حاجاتها ومتطلباتها،ومن الضروريّ أن يكون التّعاون على العيش في مثل تلك الظروف واحدا من الحلول المناسبة للبقاء على قيد الحياة والاستمرار في العيش،ومن الضروريّ أيضا أن يتّفق النّاس على عقد اجتماعيّ يؤطر تلك الحياة ويتحكّم فيها،فكان النّظام القبليّ هو ذلك النّهج الذي سارت عليه القبائل العربيّة،واتّفقت عليه من أجل تنظيم معاشها."[7]

ويرجع أحمد الشّايب نظام القبيلة إلى النّواة الأولى المتمثّلة في الأسرة، حيث يفترض أن يكون الأب رئيسا مطلق السّلطان ذا منظر مهيب، يحفّ به أولاده وأحفاده وعبيده وقطعانه، كما يرى أنّ للعصبيّة في العصر الجاهليّ علاقة مباشرة برابطة الدّم والمصاهرة؛ ويعتقد أنّ علاقات الأخوّة والخؤولة والعمومة والوالديّة

ما هي إلّا أنظمة بدائيّة أنتجت مفهوم التّعاون الدّاخليّ من جهة وربطته من جهة أخرى بمجموعة من السلوكيّات والأخلاق التي تحدّد معالم العدالة الأسريّة، وبتوسّع هذه الأسرة وتضافر أسباب جنسيّة واقتصاديّة تبرز صورة أكثر تعقيدا متمثّلة في القبيلة، فالقبيلة عنده هي مجموعة من الأسر، لها حدود جغرافيّة محدودة، تعايشت تحت مظلّة الرّحلة والانتقال من أجل البحث عن سبيل الحياة المتمركز أساسا في الماء والكلأ، وتخضع هذه القبيلة إلى نظم وضوابط تصدر عن العرف والعادات وتحت قيادة شخص حازم يكون رئيسها."[8] ويتّضح لنا من هذا الكلام أنّ نظام القرابة هو أساس البناء الاجتماعيّ للقبائل العربيّة البدويّة،التي كانت تسعى بدورها إلى تحقيق ذاتها وهويّتها من خلال إرساء الحقوق بين أفرادها ومن ثمّ مطالبتهم بالمشاركة في العمل الجماعيّ وبالنّظر إلى قسوة الحياة في الصحراء، وما يتولّد عنها من تنافس وصراعات تحت شعار(الشّرف أو العار) وجد عدد من العشائر أن من مصلحتهم التمسّك بالنّسب البعيد الذي يربط العشيرة بأصولها القبليّة في محاولة لاستعمال هذه الرّابطة من أجل تكوين قبيلة أكبر، في مقابل العصبيات الأخرى المنافسة لها. والتّمسّك بذلك النّسب والقرابة البعيدين أنتج بالضرورة ظهور قبيلة مكتفية بذاتها، مستغنية عن الاستعانة بغيرها من القبائل في حالة الدّفاع عن نفسها وقد أطلق النّسابون على مثل هذه القبائل تسمية (الجمرة) وهي القبائل التي تضمّ ألف فارس أو نحو ذلك ،كما أطلقوا على القبائل ذوات العدد الكبير من الأفراد تسمية (الأثفية) وجمعها (الأثافي)فقد ذكر ابن حبيب أن من القبائل التي وصفت نفسها بهذه الصّفة هي قبائل: هوازن، وسليم، وغطفان، وأعصر، ومحارب. كما عرفت القبائل الكبيرة التي تفرّعت منها عشائر كثيرة بـ(أم القبائل) كقبيلة بكر بن وائل، أما القبائل التي كانت لها السّيادة والرّئاسة بين القبائل العربيّة بسبب قوتها وكثرة أفرادها فقد أطلقوا عليها تسمية "جماجم العرب" لأنّها بمنزلة الجمجمة من الرّأس بالنّسبة للإنسان"[9].

وتأسيسا على ما سبق، يتّضح لدينا أنّ الشّرف القبليّ كان يقوم على ركيزتين أساسيّتين، تتمثلان في النّسب والعدد، وأنّ نظام الأحلاف في العصر الجاهليّ كان يمثّل إستراتيجيّة مهمّة في تقوية مركز القبائل التي كانت تسعى إلى زيادة عدد أفرادها وإلى تكييف نموّها الدّيمغرافيّ الخاضع لمؤثرات الأوبئة والأمراض والكوارث الطّبيعيّة من جهة والخاضع من جهة أخرى إلى النّمط الغذائيّ المرتبط مباشرة بثنائية (الجدب والخصب) التي تنبني عليها حروب الماء والمراعي،كما تنبني عليها صور الفضائل الجاهلية المتّصلة بالسّيادة والمجد وشرف النّسب."[10] ومن جهة مماثلة يكون العار والهوان تهمة وسبّة للقبائل التي يقلّ عددها ووضُعت أنسابها، فتكون بذلك نهبًا وسلبًا للقبائل القويّة ولا نجد أصدق تعبيرًا من قول الشّاعر[11]*:

لو كنتُ من مازنٍ لم تُستبَح إبلِي	**بَنو اللّقيطةِ من ذهلِ بن شيبانا**
إذن لقامَ بنصرِي معشرٌ خشِنٌ	**عندَ الحفيظَةِ إنْ ذو لوثةٍ لانَا**
قوم إذا الشّرُ أبدى ناجذيهِ لهُمْ	**قاموا إليه زرافات ووِحدانا**
لا يسألونَ أخاهُمْ حينَ يندبُهم	**في النّائباتِ على ما قال بُرهانا**
لكنّ قومي وإنْ كانُوا ذَوي عَددٍ	**ليسُوا في الشّرِ شيئاً وإنْ هانا**
يَجزون من ظلمِ أهلِ الظّلمِ مغفرةً	**ومنْ إساءَةِ أهلِ السّوءِ إحْسانا**
كأنّ ربّكَ لم يخلقْ لِخشيتِه	**سِواهُمْ منْ جميعِ النّاسِ إنسانا**

فليتَ لي بهمْ قومًا إذا ركَبوا شَدّوا الإغارةَ فرسانا وزُكبانًا[12]

نقرأ من خلال هذه الأبيات ما كان يحمله العربيّ بين جوانبه من عزّة وإباء، ورفض للظّلم والحثّ على دفعه وعدم الاستكانة للجور،ويمكن أن نقرأ من خلالها أيضًا الدّعوة الصّريحة إلى التّمسّك بالعصبيّة، وبمبدأ انصر أخاك ظالما أو مظلومًا الذي عرفه الجاهليون، و من هنا لا نعجب لهذا الألم المرير الذي ينفثه الشّاعر من أجل إبل سرقت له، فلم تكن عنده مجرّد أنعام أو حيوانات لها نفع محدود،بل كانت عماد الحياة وقوامها، ومظهر من مظاهر القوّة التي تقوم عليها البطولات القبليّة العربيّة،وربما اندلعت حروب طويلة الأمد كانت الناقة أو الفرس سببا في إثارتها (داحس والغبراء والبسوس مثلا) وبتعبير حنّا نصر فلقد:«كان البدو يعتمدون في حياتهم على الخيل والإبل والغنم، وكانت هذه الحيوانات لا تقدّر بثمن، لأنّ فيها أساس بقائهم، كما أنّها مثّلت دورًا كبيرًا في الصّحراء كوسيلة من وسائل النّقل والمواصلات، كما كانت من أهمّ العدد الضّرورية في القتال، فكان البدو يعتمدون على هذه الحيوانات أيام السّلم وأيام الحرب».[13]ومن المعلوم أنّ الصّحراء العربيّة لم يكن بها ذلك العشب الذي يكفي جميع حيوانات القبائل دون اللّجوء إلى الصّراع والتّقاتل من أجل منابت الأكل ومنابع المياه،ومن الواضح أنّ تلك الأملاك تكشف عن طريقة استخدام قواعد الرّعي البدويّة، فالمكانة الاجتماعيّة للقبائل تنعكس من خلال ترتيب ورود المياه، ومن خلال الاستيلاء على الأراضي التي يكثر فيها العشب، فالقوّة الاقتصادية رمز صارخ ودليل واضح على الرّياسة والشّرف،«فإذا أخلفت السّماء و أمحلت الأرض أكل العرب بعضهم بعضا»[14] ومن جميل قولهم في هذا المعنى:

إذا سقط السّماء بأرض قومٍ رعيْناهُ وإنْ كانوا غِضابا[15]

ومثله أيضا قول عمرو بن كلثوم :

ونشرَبُ إنْ وَرَدنا الماءَ صفواً ويشرَبُ غيرُنا كدراً وطِينا[16]

ليس في البادية مكان للضّعيف،ولا داع يدعو إلى مبادئ العدالة والمساواة، لاسيّما عندما تكون مواطن العشب قليلة ،وموارد الماء نادرة، فالاضطرار يدفعهم إلى الاحتكام لحدّ السّيف،والحرب وحدها هي الحكم،لأجل ذلك لم يكن العربيّ يسمح لنفسه بمزاولة نشاط آخر غير السّلب والنّهب،فهو يحتقر تلك الأعمال اليدويّة فهي في نظره «تعبّر عن الخور والجبن، وأنّه من أكبر العار أن يقال عن العربيّ أنّه صانع أو حائك، فذاك يعني في نظرهم أنّه ضعيف يحصل على قوته بعرق جبينه كالنّساء ولا يحصل عليه بحدّ السّيف»[17]ومن غير شكّ فلقد كان للبيئة الصحراويّة وما تميّزت به من تباين وجفاف،وحرّ قائظ وبرد قارص،واتساع صحرائها الأثر الكبير في بناء أخلاق العرب وصقل سلوكهم،وبطولة الجاهليّ لم تكن إلّا منتجا صحراويّا أفرزه صراع البدويّ مع بيئته، وحسب تعبير عفيف عبد الرحمان فلقد فرضت الصحراء على العرب أخلاقا خاصة وألزمتهم بتقاليد لا يستطيعون عنها حولا،وصارت لهم على مرّ السّنين جبلّة."[18]

_دور النظام القرابي في إنتاج البطولي:

دفع نظام القرابة أفراد القبيلة إلى الالتفاف حول شخص واحد تأتمر بأمره وتذعن لحكمه، يمثّل من جهة مؤشرًا على وحدتها وتماسكها الدّاخليّ، ويرمز من جهة أخرى – بصفاته البطولية التي يتحلى بها

–إلى بطش القبيلة وغطرستها إزاء الخطر الخارجي الذي يتربص بها، وعادة ما تكون رئاسة القبيلة العربيّة في أهل العصبيّة والجاه.وإذا تساوت العصبيّات في جماعة قدّموا أكبرهم سنًا،وكان إذا أشكل عليهم الانتخاب لأي سبب عمدوا إلى الاقتراع"[19]ولقد بسط هذا النظام القبليّ قانونه على أغلب القبائل العربيّة،حيث كانت كلّ قبيلة تشعر وكأنّها أمّة مستقلة بكيانها عن القبائل الأخرى،فكان كلّ فرد يعمل لصالح القبيلة بأكملها،وهي في مجموعها مطالبة بحماية أفرادها والمحافظة على شرفها،ولا يدين الواحد منهم لأي شخص بالطّاعة والولاء سوى لرئيس قبيلته،ولا يعترف بأيّة سلطة غير سلطة ذلك الرئيس الذي كان يحرص على إشاعة العدل بين أفراد قبيلته دون محاباة أو تمييز،"[20] ومن الطبيعي أن يتحلى شيخ القبيلة (صاحب العصبيّة الأقوى) بالخلال والصفات التي تنسجم مع بيئته وطبيعة منصبه فلا بدّ إذن أن تتوفّر فيه: رجاحة العقل، وعظم الثّروة، وكرم الأخلاق، ونفاذ الكلمة، وأن يكون شجاعًا مقدامًا له من الخبرات الحربيّة ما لا يتيسّر لغيره،وبعبارة أخرى وجب عليه أن يكون بطل القبيلة(كامل الصفات)،ولعلّنا نجد صورة هذا البطل القائد في عينية لقيط بن يعمر الإيادي التي يشير من خلالها إلى أبرز الصّفات التي يجب أن يتحلى بها البطل،ومن ذلك قوله:

فقَلِدوا أمركُم للهِ درّكم ... رحبَ الذراعِ بأمرِ الحربِ مضطلِعا
لامُسرفٍ إنْ رخاءُ العيشِ ساعدهُ ... ولا إذَا عضَّ مكروهٌ بهِ خَشَعا
مُسهّدُ النّومِ تَعنيهِ ثغُوركُم ... يرومُ منها إلى الأعداءِ مصطنعا
ما انفكَّ يحلبُ درّ الدهر أشطرَهُ ... يكونُ مُتّبِعا طوراً ومتّبَعا
وليسَ يشغَلُه مالٌ يثمّرُه ... ولا لهُ ولدٌ يبغي لهُ الرّفعا
فتى استمرَّتْ على شزرٍ مريرتُه ... مستحكِمَ السّنِ لا فخماً ولا ضرِعا
عبلُ الذّراعِ أبِياً ذا مُزاينَةٍ ... في الحربِ لا عاجزا نكساً ولا ورَعا
مستنجَدا يتحدّى الناسَ كلّهم ... لوْ صارعَ الناسَ عنْ أحسابِهم قرَعا[21]

جاء في لباب الآداب أنّ هذه الأبيات هي أحسن ما قيل في معنى اختيار الرئيس المضطلع بقيادة الجيش وتدبير الحرب،"[22]وهي بالفعل كذلك فلقد جمع الشّاعر صفات البطل المنشود والقائد المثالي .

و الظّاهر أنّ هيبة القبيلة العربيّة قد تجسّدت في هيبة رئيسها؛ويظهر ذلك من خلال تلك القوانين والأعراف التي سنتها بعض القبائل العربية بغرض تأكيد منزلتها وإظهار قوتها، فلقد جعلت القبائل القويّة ديّة قتيلها أرفع من ديّة القبائل الضّعيفة، وديّة سيّد القبيلة فوق ديّات باقي أفراد القبيلة."[23]

ويرى مُحَمَّد الخطيب أنّ نظام القرابة –بواجباته التي فرضها– أسّس النّواة الأولى للمجتمع الدّيني عند العرب، فكان تعظيم الرّؤساء عندهم جزءا من الدّين،ويضيف بأنّهم"ما داموا غير مرتبطين ربطًا وثيقًا بإله ولا يجمعهم دين عامّ كما تجمعهم أواصر القبيلة التي كانت مثال العروة الوثقى بينهم، فلماذا لا يعظمون ويقدّسون سيّدها؟ أو يرفعونه إلى مكانة العبادة ؟"[24]

ويضيف في موضع آخر أنّ هؤلاء العرب لم يكتفوا بعبادة أسيادهم أحياء، ولشدة تعظيمهم حولوا قبورهم التي حوت أجسادهم إلى حرم مقدّس تُطلب عنده الشّفاعة وتُنال عنده البركة فيقول: «وللقبر مكانة سامية عند الجاهليّين، هذا إذا كان صاحب القبر سيّد القوم أو أميرهم، إذ كنت تجدهم يرفعون فوقه

القبّة فيحتمي إليه الخائفون والعائذون، ويبدو أنّ الدّافع إلى هذه العادة هو دافع نفسي، يجعل ممن يؤمن بها يتصوّر أن القبر هو استمرار للقبّة، وللبيت الذي كان فيه السّيد في الحياة الدّنيا»[25] .

هذا وإنّنا لا نقول بأنّ هذا التّعظيم المفرط قد وصل إلى حدّ العبادة،بل يراه الباحث تعظيما لقيمة البطولة التي كانت تمثل للعربيّ رمزا للبقاء،وإذا كان فرَض عبادة الأسياد موجودا،فلا يمكن أن يكون قد مسّ جميع قبائل العرب،فحياة العربيّ في الجاهليّة حياة بسيطة،تستند إلى الواقع وتتشبّث بالأرض،وبطولته كما يصوّرها الأدب الجاهليّ بطولة أرضية وليست سماويّة،وبتعبير ناصر الدين الأسد «كانت بطولته(العربيّ) إنسانيّة بشريّة،تستمدّ وجودها وحياتها ومظاهرها من حياة الناس»،[26] ويعزّز شوقي ضيف هذا الرأي فيقول: «فالسيّد في القبيلة، إنّما هو الشّخص الألمعيّ الذي حنكته التّجارب، وغالبًا ما يرث سيادته عن آبائه، حتّى يتمّ له الحسب الرّفيع، وليس له أيّ حقوق سوى توقيره، أما واجباته فكثيرة، فلا بدّ من الشّجاعة والكرم والنّجدة وحفظ الجوار وإعانة المعوز والضّعيف، ولا بدّ أن يتحمل أكبر قسط من جرائر القبيلة وما تدفعه من ديّات ولا بدّ أن يكون حليمًا متسامحًا»[27]ولعلنا نجد في شعر مالك بن حريم هذه الصورة التي يتحدث عنها شوقي ضيف،حيث يقول:

وإنّي لأسْتحي منَ المشيِ أبتغِي إلى غيرِ ذي المجدِ المُؤثَّلِ مطْمعا
وأكرِمُ نفسِي عنْ أمورٍ كثيرةٍ حِفاظاً وأنهى شحَّها أنْ تطلّعا
وآخذُ للمولى إذا ضِيمَ حقَهُ من الأغْيَطِ الآبي إذا ما تمنّعا
فإنْ يكُ شابَ رأسي فإنّني أبيْتُ على نفسي أمورا ً أربَعا
فواحِدةٌ: أنْ لا أبيتَ بِغِرَّةٍ إذا ما سوامُ الحيّ حولي تضوَّعا
وثانيةٌ: أنْ لا أُصمِّتَ كلبَنا إذا نزلَ الأضيافُ حِرصاَ لنودَعا
وثالثةٌ: أنْ لاتُقذَّعَ جارَتي إذا كان جارُ القومِ فيهم مُقْذّعا
ورابعةٌ: أنْ لا أُحجِلَ قِدرَنا على لحمِها حين الشّتاءِ لِنَشْبعا[28]

يتبيّن من هذه الأبيات حرص العربيّ على تحقيق المجد،فهو الغاية والهدف الذي يسعى إليه كلّ من يطمح إلى سيادة قومه،والصّفات التي يدعو إليها الشّاعر هي القيم التي تتطلّبها الصّحراء،فالكرم والشّجاعة،والوفاء ،والنّجدة وغيرها من الخلال الحميدة هي أوصاف البطل البدويّ (الكامل).

_شرف القبيلة والمجد المؤثّل:

ولا مغالاة إذا قلنا أنّ الذي كان يميّز الحياة العربيّة في العصر الجاهليّ هو تلك البطولات القائمة بين القبائل العربيّة،ولا شكّ في أن تكون البطولة الحربيّة طابعا عامّا لها ،وبتعبير أحد الباحثين فلقد كانت القبائل العربيّة في جزيرة العرب كالعواصف على الخيل والإبل تطير بها الغارات أو عليها،"[29] وبتعبير شوقي ضيف فلقد كانت «كلّ قبيلة مستعدّة للحرب والجلاد والإغارة على من حولها من البدو والحضر،وهي دائما شاكية السّلاح حتّى تحمي حماها ومنازلها وآبارها ومراعيَها ولذلك كانت الشّجاعة مثلهم الأعلى».[30] والعربيّ يعلي من شأن الشّجاعة وتكون أعلى شأنًا إذا اقترنت بالفتوّة والفروسيّة، وهي المظهر الجلي للبطولة، فلا يعدّ البطل بطلا حتّى يظهر من القوّة والفتوّة ما يبزّ به أقرانه والفتوّة في اللّغة

صفة الفتى، اشتقت منه كالرّجولة من الرّجل والأبوة من الأب، والفتى في اللّغة هو الشّاب الحدث، واستعيرت الفتوّة منذ الجاهلية للشّجاعة.واستعير الفتى للشجاع."[31]

وكما أسلفنا الذّكر،فإنّ البطولة هي تشوّف للكمال ورغبة في التميّز والتّفرد، ولا كمال إلّا أن يملك المرء جميع أسباب القوّة، وربّما تبدأ أوّل هذه الأسباب مع ولادته وطفولته الأولى، ولا شكّ في أن تكون رغبة الوالدين قويّة في أن يشبّ طفلهما قويًّا شجاعًا وأن يتخلّق منذ صباه بأخلاق الرّجال والفرسان، فالمجتمع الذي ولد فيه لا يسمح إلّا أن يولد طفلهم بطلا عظيمًا أو بتعبير عمرو بن كلثوم:

إذا بلغَ الفِطامَ لنا وليدٌ تخِرُّ لهُ الجبابِرُ ساجدِينا[32]

وربّما تكون المبالغة في هذا البيت مفرطة شيئا ما،لكنّها تعبّر في نظري عن الرّغبة الملحّة في تهيئة الطّفل العربي وتربيته ليصبح فارس القبيلة وفتاها، فهو الموعود ليوم الكريهة،والمفقود في اللّيلة الظلماء.والفرح بالمولود الصّبي هو فرح بآمال الانتصار وتباشير السّيادة والشّرف وهو جزء من الاستعداد للحرب،وهو حلم كلّ أسرة عربيّة تعيش بالحرب وتموت بها.

. وقد يتّضح هذا الحلم في أغاني المهد أو ما يعرف بشعر التّرقيص؛وهي مقطوعات وترانيم شعرية معظمها من بحر الرّجز،تجري على لسان الآباء والأمهات على مسامع الطفل في مراحل متنوعة من عمره،فتزرع فيه القيم وتحبّب إليه المثل العليا.[33]ومن أمثلة ذلك ما قالته فاطمة بنت أسد زوج أبي طالب وهي ترقّص ابنها عقيلا وهو في المهد:

إنّ عَقيلاً كاسمه عقيلُ وبأبي الملفّفُ المحمولُ
أنتَ تكونُ ماجدٌ نبيلُ إذا تهبُّ شمألٌ بليلُ
يُعطي رجالَ الحيِّ أو يُنيلُ[34]

و مثله في قول ضباعة بنت عامر، وهي ترقّص ابنها المغيرة بن سلمة المخزومي فازدهت بآبائه وأشادت بسادته تأمل في ذلك أن يكون ابنها نبعة من تلك الدوحة فقالت:

نمَى بهِ إلى الذّرى هشامُ قرمٌ وآباءٌ لهُ كِرامُ
منْ آلِ مخزومٍ همُ الأعلامُ الهامةُ العلياءُ والسّنامُ[35]

من الطبيعي أن تكون مثل هذه (المرقّصات) النّموذج الأمثل لتربية طفلٍ يعيش بأحلام الفتوّة والفروسيّة التي تعدّ مرحلة مهمّة في حياة البدويّ،بحيث تساهم في بناء شخصية سويّة تنسجم وتستجيب لظروفه الاجتماعيّة والنّفسيّة،وبتعبير أحمد سويلم فإنّ الفروسية منتهى حلم الطّفل العربي، وإحدى ملامح التّربية العربية القديمة، والتّدريب عليها يكون منذ الصّغر، حتّى إذا شبّ الفتى كان فارسًا، فذًّا مغوارًا ولأجل ذلك نشأ العربيّ قديما شجاعًا كريمًا عزيز النّفس، يحترم المرأة ويدافع عنها ويجير المستجير ويغيث الملهوف ويجاهد في رفع الظّلم ويخلص لعشيرته وهو أوّلا وأخيرًا رمز القوّة في قومه،"[36] والافتخار بالفتوّة كان من أعلى عبارات التّفاخر بما تحمله من معاني الشّرف والإباء، وهي دليل على الحريّة والكرم والسّعي في أمور النّاس، وقضاء حاجاتهم، وإظهار النّعمة وإنصاف الغير، ونكران الذّات،"[37] وما أبلغ قول طرفة حين يختزل هذه المعاني شعرا فيقول:

إذا القومُ قالوا منْ فتًى؟ خِلتُ أنّني عُنيتُ فلمْ أَكسَلْ ولمْ أتبلّدِ[38]

وتتوسّع الخنساء أثناء رثائها لأخيها فتظهر صورة الفتى السّيد واضحة،حيث تقول:

أعينيَّ جُودا ولا تَجْمُدا ألا تبكيانِ لصخرِ النّدى ؟
ألا تبكيانِ الجريءَ الجميلَ ألا تبكيانِ الفتى السيّدا ؟
طويلُ النّجادِ رفيعُ العِماد سادَ عشيرتَهُ أمرَدا[39]

وبطلها الفتى لم يكن ليسود عشيرته لولا الخلال والمناقب الرّفيعة التي كان يتحلّى بها،وفي ذلك تقول في قصيدة أخرى:

وإنّ صخراً لوالينا وسيّدُنا وإنّ صخراً إذا نشْتُو لنحّارُ
وإنّ صخراً لَمِقدامٌ إذا رَكبوا وإنّ صخراً إذا جاعوا لَعقّارُ
وإنّ صخراً لَتأتمُّ الهُداةُ بهِ كأنّهُ علمٌ في رأسِه نارُ
جَلدٌ جميلُ المُحيّا كامل ٌ ورعٌ وللحروبِ غداةَ الرّوعِ مِسعارُ
حمّالُ ألويةٍ هبّاطُ أوديةٍ شهّادُ أنديةٍ للجيشِ جرّارُ[40]

ولا غرو إذا سجّلنا في ذلك تسابق الفتيان والفرسان في العصر الجاهليّ إلى مراتب العزّ والشّرف والسّيادة، والأخبار في هذا المجال كثيرة، ومن بين تلك الأخبار ما يروى عن نشأة عمرو بن كلثوم الذي ترعرع في ذروة المجد في بيت من أسياد تغلب هذه القبيلة المرهوبة الجانب، فكان من الطّبيعي أن يكون معجبًا بنفسه، فخورًا بأهله وقومه، ويظهر أنّ شاعرنا توافرت لديه من الخصال الحميدة كالشّاعرية والفروسيّة والخطابة والكرم والشّجاعة، ما جعله يسود قومه في سن مبكرة، فقد ذكر الرّواة أنّه ساد قومه وهو ابن خمس عشرة سنة"[41].

ومن خلال هذه التّربية الحربيّة التي اقتضتها قوانين الطّبيعة الصّحراويّة تبرز بطولة الفرسان وتتعدّد أشكالها، فالقوّة عامل بقاء، وعنصر أساسي من مقوّمات الحياة، ويحفل الشّعر الجاهليّ بذكر هؤلاء الفرسان الأبطال وهم يخوضون معارك الشّرف ودفع العار، فينتصرون بذلك على أعدائهم أو يموتون تحت ظلال سيوفهم موت الكرامة والعزّة، ولا نستغرب كثرة الفرسان الشّعراء في ذلك العصر، فالعصر كلّه عصر بطولات، وعصر قوّة وغلبة، ومن الطّبيعي في مثل تلك الحال أن يكثر شعر الحماسة وأن يأخذ حصة الأسد لدى هؤلاء الشّعراء الفرسان، فالانتصارات تستدعي الفخر والمدائح، والنّكبات والهزائم تبعث الشّعراء على الرثاء والتغني بمناقب الأبطال والشّجعان.

ومن أبرز صور البطولة الحرص على مواجهة الخصوم فما استقبح شيء لدى هؤلاء الفرسان الشّعراء قدر استقباحهم للفرار من المعارك وتولية الأدبار يوم الزّحف، فدليل الشّجاعة عندهم هو الصّبر عند الكريهة والثّبات ،وعدم الفزع ديدنهم، فالأنفس غالية في السّلم ولا ترخص إلّا إذا كان يوم الرّوع وفي هذا المعنى يقول شاعرهم:

إنّا لَنرخِصُ يومَ الرّوعِ أنفُسَنا ولو نُسامُ بها في الأمنِ أَغْلينا[42]

والفروسيّة كما جاء عند نوري القيسي هي:« مظهر من مظاهر الحياة نشأ نتيجة عوامل اجتماعية وأخلاقية وحربية معيّنة،وتطوّر وفق أساليب حيويّة شاملة،وقد ساعدت على تطوّره فطرة عربيّة

سليمة،وجدت في المثل السامية قيمها الحقيقية وهدفها الذي تسعى إليه».[43]والفارس الجاهليّ أو البدويّ الكبير كما يصفه ريجيس بلاشير.Régis Blachére(-1900 1973م)كان سيّد الصحراء الحقيقي جعل شعاره في الحياة "الذّل بالحراث والمهانة بالبقر،والعزّ بالإبل والشجاعة بالخيل"[44] والشّجاعة تقتضي أن يكون الفارس ذا عزيمة وحزم،لا يتردّد ولا يتلوّم،ولا يتقاعس،لأنّه يناجز فرسانا شجعانا،فلا بدّ أن يكون قويّ الجنان، نافذ الرأي،ذا بصيرة في المآزق."[45]ولقد حركت الفروسيّة أفئدة الشّعراء وفتقت ألسنتهم بالبيان،إذ لا تخلو الدواوين الشّعرية القديمة من ذكر الفروسيّة والإشادة بالفرسان،،فكان منهم الشّعراء الفرسان الذين جمعوا بين شجاعة الجنان وفصاحة اللّسان.

ولقد اشتهر من بين هؤلاء الفرسان الشّعراء جماعة أظهروا بطولة ضدّ خصومهم وأقرانهم،وهم كثيرون،فقد كان لكلّ قبيلة فارسها أو فرسانها –على حدّ تعبير شوقي ضيف– الذين كانوا يتدربون على ركوب الخيل طويلا، وكيف يقفزون عليها ويشهرون سيوفهم ويلوّحون برماحهم وكيف يسدّدون ضرباتهم إلى أعدائهم،"[46]فسادوا بذلك أقوامهم وعلت مراتبهم وخلّد التّاريخ ذكرهم. ومن بين هؤلاء عامر بن طفيل سيّد بني عامر الذي يُعرّف بنفسه في شعره ويفتخر بفروسيته فيقول:

إنّي وإنْ كنتُ ابن سيّدِ عامرٍ وفارسَها المندوبَ في كلّ موكِبِ
فما سوّدَتني عامر عن قرابةٍ أبى اللهُ أن أسمو بأم وأب
ولكنّني أَحمِي حماها وأتّقي أذاها وأَرمي منْ رماها بمنكبِ47

والصّبر والثّبات، وعدم الفرار، وكره تولية الأدبار، سمات وصفات يتقاسمها أغلب الشّعراء الفرسان وهي دون شك الصّورة المثلى لبطل الحرب.

والبطل المقدام لا يهاب الموت في الحروب، بل أشدّ ما يكرهه هو أن يموت الفارس حتف أنفه، ومن نفيس القول ولذيذه في هذا المعنى قول السّموأل :

ونَحنُ قَومٌ لا نرَى المَوتَ سبّةً إذا مَا رأتهُ عَامرٌ وسَلولُ
يَقربُ حبُّ الموتِ آجَالَنَا لَنَا وتَكرَهُه آجَالُهم فَتطولُ
تسيلُ على حدِّ الظبّاتِ نفوسُنا وليستْ على شيءٍ سواهُ تسيلُ
وما مات منَّا ميّتٌ في فراشِه ولا طلَّ منّا حيثُ كان قَتيلُ[48]

وكما أنّهم لا يهابون الموت في المعارك، فإنّهم يسرعون إلى قتل أعدائهم، ويتفاخرون بكثرة عدد من قتلوا إذا كانوا نظراءهم في البطولة والفروسيّة،ومثل ذلك قول الفرّار السّلمي (واسمه حيّان بن الحكم):

وكَتيبةٍ لبّستُها بكتيبةٍ حتّى إذا التبستْ نَفضتُ لها يدي
فتركتُهم تَقِصُ الرّماحُ ظهورَهم من بينِ مُنعفرٍ وآخر مُسنّدِ
ما كانَ ينفعُني مقالُ نسائِهم وقتِلتُ دون رجالها لا تبْعَدِ[49]

وشعر الفرسان كما يصفه بطرس البستاني يشتمل على جميع الفضائل الجاهليّة،وأخصّها فضيلة الفروسيّة،حيث ينصرف الشّاعر إلى ذكر حروبه مبالغا في وصف البطل الذي يبارزه أو يسطو عليه،أو في

وصف المعركة التي يخوض غمارها.والتكثّر والغلوّ من خصائص شعر الفروسيّة،فإن الواقعة الصغيرة تبدو في عين ذلك الشّاعر ملحمة كبيرة،والعدد القليل جيشا عرمرما وغيرها من المبالغات."[50]

وفي شعر الفروسيّة تبرز صورة البطل المحارب واضحة، وتظهر معها فضائل البداوة حتّى تكاد لا تخفى على أحد، فيستشعر القارئ أنّه أمام نفس جبلت على الإباء والنّجدة، وفُطرت على الكرم والعفّة، والشّجاعة عند الشّاعر الفارس غريزة وسجيّة، لا تصنّع فيها ولا تكلّف،والثّقة بالنّفس هي الباعث والدّافع والمجد المؤثّل هو المبتغى.

_ المرأة والشرف:

والظّاهر أنّ التّمسك بالشّرف لم يكن يراود الرّجل الجاهليّ وحده،بل نراه حاضرا بقوّة لدى النساء أيضا،ويتّضح هذا الكلام في أشعار النّساء،خاصة تلك الأشعار التي قيلت في الحروب ومآسيها،فنجد المرأة تتغنّى بالشّعر كما يتغنّى به الرّجل،فتفخر وتمدح وترثي على طريقة الرّجال،ومعنى هذا الكلام أنّ الصوت الذي كان يتكلّم في الشّعر لم يكن صوت الأنثى ولا صوت الذّكر،وإنّما هو صوت القيم القبلية،فالكرم والشّجاعة والنّجدة والمروءة وغيرها من الأخلاق الفاضلة هي منتجات أفرزتها الصّحراء القاسية،وغذتها الحياة الاجتماعية وساهمت في الحفاظ عليها الحاجة إليها،لأجل ذلك لا نعجب حين نسمع في شعر النّساء أصوات الذكور،ويصعب علينا أن نميّز بين شعر النساء وشعر الرجال،والشّواهد على ذلك كثيرة،ومنها ما قالته خرنق بنت هفان مفتخرة بقومها:

لا يبعدَنَ قومي الذينَ همُ سمُّ العُداةِ وآفةُ الجزرِ
النازلون بكلّ مُعترَكٍ والطّيبون معاقدَ الأزرِ
إنْ شربُوا يَهبوا وإن يدعوا يتواعظونَ عن مَنطقِ الهجرِ
قومٌ إذا رَكبوا سمعتَ لهمْ لغطاً من التأييه والزّجر
والخالطينَ نحيتَهم بنضارِهم وذوي الغِنا م نهم بذوي الفقرِ
هذا ثنائي ما بقيتُ عليهمُ فإذا هلكتُ أجنني قبري[51]

ونجد لدى الخنساء ما يعضد رأينا،ومن جيّد شعرها قولها في رثاء أخيها :

أعينيَ جُودا ولا تجمدا ألا تبكيانِ لصخرِ النّدى؟
ألا تبكيانِ الجريءَ الجميلْ ألا تبكيانِ الفتى السيّدا؟
طويلُ النّجاد رفيعُ العِماد سادَ عشيرتَهُ أمردا
إذا القومُ مدّوا بأيديهِمْ إلى المجدِ مدّ إليه يدا
فنالَ الذي فوق أيديهم من المجدِ ثمَّ مضى مُصعِدا
يكلّفُه القومُ ما عالَهم وإن كان أصغرَهم مولِدا
ترى المجدَ يهوي إلى بيتهِ يرى أفضل الكسبِ أن يُحمدا
وإن ذُكِر المجدُ ألفيتَه تأزرَ بالمجدِ ثمّ ارتدى[52]

ويبدو جليّا من خلال هذه القصيدة أنّ الشّاعرة لا تبكي فقد أخيها إلّا بالقدر الذي تبكي فيه فقد القيم التي ظنّت أنّها فقدتها بموت أخيها،ولو جاز لنا أن نضع عنوانا لهذه القصيدة لاخترنا لها البكاء على المجد والشرف

ومن ناحية أخرى، فإنّنا نجد معظم قصائد العصر الجاهليّ لا تخلو من الحديث عن المرأة والحرب أو ما يتّصل بهما، وفي ظلّ هذا الحضور القويّ للمرأة وفي ظلّ هيمنتها الواسعة على المنجز الشعريّ القديم، ألا يمكننا أن نتساءل عن سبب هذه المركزية التي اكتسبتها المرأة العربية في الشعر الجاهليّ؟لاسيّما حين ندرك غياب المؤسسات السياسية والثقافيّة التي عادة ما تساهم في توجيه الخطاب الشعري وتعرض عليه أنساقها وتصوّراتها، التي يتأسس معها الذوق العام على حد تعبير الغذامي؟[53]

و إذا كان الأمر كذلك،ألا يمكننا أن نعتبر تلك المقدّمات الطّللية التي غالبا ما تبدأ بالنسيب وبكاء الأحبة بكاءً على القبيلة كلّها، واستذكارا لأمجادها ،واستحضارا لتاريخها؟ ومن جهة أخرى ألا يمكننا أن نتصوّر تماهي صورة القبيلة مع صورة المرأة المعبّر عنها لدى شعراء الجاهلية،مع افتراض غياب نسبي لذكر القبيلة في الشّعر الجاهليّ وحضور قويّ لها في وجدان الشّاعر؟

وإذا جاز لنا ذلك فإنّه يكون بالإمكان أن نقرن بين صورة المرأة في الشّعر الجاهليّ وصورة القبيلة في ظل ثنائية (الشرف والعار) التي سيطرت على وعيّ شعراء تلك الفترة، ويصير بذلك اقتران البكاء على الطّلل بذكر الحبيبة دليلا وشاهدا على ذلك الامتزاج الرّهيب بين المرأة والقبيلة، حتّى صار ذكر الأوّل عندنا داعيا وملزما لذكر الثّاني، وما تلك الوجدانيات التي تتصدّر القصائد بما تحمله من ذكر للحبيبة، والتغنّي بمحاسنها ومدح شمائلها إلّا صوت الشّرف القبليّ في وجهه النّاعم؛ومن هنا يصبح الحبّ بتعبير نوري القيسي« حافزا من حوافز البطولة وباعثا من بواعث الإلهام الشّعري،وقوّة تدفع إلى جلائل الأمور»[54] ومن أجمل الشّواهد على هذا المعنى ما قاله عمرو بن معد يكرب:

ليسَ الجمالُ بمئزرٍ فاعلمْ وإنْ رُديتَ بُردَا
إنّ الجمالَ معادنٌ ومناقبٌ أورثنَ مجدَا
أعددت للحدثانِ سا بغةً وعداء علنْدى

إلى قوله:

لما رأيتُ نساءنا يغمِصنَ بالمعزاءِ شدَّا
وبدَتْ لميسُ كأنّها بدرُ السّماء إذا تبدَّا
وبدتْ محاسِنها الّتي تخفى وكانَ الأمرُ جدَّا
نازلْتُ كبشَهم ولمْ أر من نزالِ الكبشِ بُدَّا[55]

وربّما تتّضح الفكرة أكثر في شعر عنترة حيث قال:

ستعلمُ أيُنا يبقَى طريحاً تخطّفُه الذّوابلُ والنّصولُ
ومن تُسبى حليلتُه وتُمسي مُفجّعةً لها دمعٌ يسيلُ
أتذكرُ عبلةَ وتبيتُ حيّاً ودون خبائِها أسدٌ مهولُ؟
وتطلبُ أن تلاقيني وسيفِي يُدكُ لوقعِه الجبلُ الثقيلُ؟[56]

الخاتمة:

وختاما يمكننا القول إنّ فكرة الشرف القبلي _ بوصفها قيمة إيجابية_ مكّنت العربيّ القديم من إيجاد معنى استثنائي من عمق الحياة الوثنية المادية ساعده على تحقيق توازنه الرّوحي،ولقد استطاع الشّعر الجاهلي أن يعبّر عن هذه القيمة وأن يحافظ عليها في الوقت ذاته،كما يمكننا أن نخلص من خلال هذا البحث إلى النقاط الآتية:

_ لعبت الصحراء العربية(من خلال طبيعتها القاسية)دورا رئيسا في إنتاج قيم البطولة العربية،وجاءت على رأسها فكرة الشرف القبلي الذي جعلته القبائل العربية شعارا لها.

_ رسّخت فكرة الشرف القبلي معاني روحيّة في حياة البدوي،يمكن أن تكون _ في نظري_ بديلا عن القيم الدينية.

_ساهم الأبطال وعلى رأسهم الفرسان والشعراء في التأسيس لمفهوم الشرف القبلي، كما تسارع الكماة و الفتيان منهم إلى تحقيق المجد المؤثل الذي يعبّر في نظري عن الشرف الفردي في مقابل شرف القبيلة.

_ قاسم الرّجال المرأة فكرة الشرف القبلي،وكانت المرأة في أحيان كثيرة محور ذلك الشرف.

وأخيرا يمكننا الزعم أنّ فكرة الشرف القبلي جاءت بديلا أخلاقيا،ساهم في تعويض النقص الرّوحي والديني الذي كان سمة للعربي في العصر الجاهلي،ولقد ساهم الشّعر بوصفه آداة ثقافية مهمّة في ذلك العصر في صناعة النموذج البطولي الذي يعتبر في الأصل صورة للشرف القبلي والمجد المؤثّل.

الهوامش:

1- ينظر:سيغموند فرويد ،موسى والتوحيد،تر:جورج طرابيشي،دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط.4، 1986، ص.100.

2- ينظر: جوزيف كامبل،البطل بألف وجه،تر: حسن صقر،الدار الثقافية للنشر،القاهرة،ط2000،1،ص30.

3- يرى مونتسكيو :أنّه قد تكون حرارة الإقليم من الشّدة ما يكون الجسم معه بلا قوّة ،وحينئذ ينتقل انحطاط القوّة إلى الرّوح، فلا يكون حبّ اطلاع ولا مشروع كريم، ولا شعور فياض، وهناك تكون الميول السّلبية تمامًا وهنالك يكون الكسل سعادة، وهنالك يكون معظم الأغذية أسهل احتمالا من عمل الرّوح، والعبودية أسهل احتمالا من قوّة الرّوح التي هي ضرورية ليسيّر الإنسان نفسه بنفسه،. هذا وإن كنّا مع هذا الطّرح من جهة أنّ للبيئة قدرة على التّأثير في سلوك الأفراد والجماعات؛إلا أنّنا نختلف معه في جعلها حتمية جغرافية،فمن غير الممكن أن يتساوى الناس مساواة مطلقة حتى وإن كانوا يعيشون تحت رحمة بيئة واحدة،وإن كان هذا الوصف يصلح لجماعة معينة فإنّه لا يعبّر عن العربي بصفة خاصّة،فتاريخه يشهد أنّه لم يرضخ لبيئته القاسية،ولم يخضع لها خضوع المستسلم؛وإنما كان مشروعه الدّائم هو التّحدي الذي قامت عليه بطولاته النّادرة كاستجابة حتمية لإرادة هذا الإنسان،الذي أسّس لمكارم الأخلاق،والشواهد على ذلك كثيرة لا يتّسع لها هذا المقام، للمزيد ينظر: أحمد العجلان،التّوظيف السّياسي لنظرية البيئة الطّبيعة بين ابن خلدون ومونتسكيو، دار ومؤسسة سلان للطّباعة والنّشر والتّوزيع، سوريا، ط1، 2008، ص160.

4- ينظر: وهيب طنوس،نظام التصوير الفني في الأدب العربي،منشورات جامعة حلب،ط1، 1993، ص53.

5- طرفة بن العبد،الديوان،شرح وتقديم:مهدي مُحَمَّد ناصر الدين،دار الكتب العلمية،بيروت،لبنان، ط2002،3،ص24.

6- النابغة الذبياني،الديوان، تح: الطاهر بن عاشور،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع،الجزائر،1976، ص249.

7- يرى عفيف عبد الرحمن أنّه من الأسباب التي دعت إلى تكوين القبيلة،وإلى أن تكون الوحدة الاجتماعية في ذلك العصر هو اضطرا

ب الحياة المادية وعدم قيام حكومة تحفظ أرواح الناس وممتلكاتهم،وإلى قسوة الحياة في تلك الصحراء المترامية الأطراف،للمزيد ينظر: عفيف عبد الرحمن،الشعر وأيام العرب في العصر الجاهلي،دار الأندلس للطباعة والنشر،ط1984،1،ص17.

8- ينظر:أحمد الشايب،تاريخ الشّعر السّياسي إلى منتصف القرن الثّاني، دار القلم،بيروت،لبنان،ط5، 1976، ص31.

9- هاشم يحي الملاح، الحضارة الإسلامية وآفاق المستقبل، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان،د ت، ص15.

10- ينظر : حوار مع د ة حياة عمامو: نظرات في الإسلام المبكر: الشرف والسلطة والتمصير، يوتيوب: 2018/06/20.

11- قُرَيظُ بن أُنَيفٍ العنبري التميمي شاعر جاهلي ،في حياته غموض ،انفرد "معمر بن المثنى " برواية خبر عنه،خلاصته أنّ بعض بني شيبان أغاروا عليه وأخذوا ثلاثين بعيرا له،وخذله قومه فاستنجد بني مازن فنهبوا من بني شيبان مائة بعير ودفعوها إليه،فقال هذه الأبيات للمزيد ينظر:أيمن رؤوف القادري،السرقة الشعرية عند صفي الدين الحلي،دار الكتب العلمية ،بيروت لبنان،د ت،ص53.

12- أبو تمّام حبيب بن أوس الطائي،ديوان الحماسة،تح أحمد حسن بسج،دار الكتب العلمية،بيروت،لبنان، ط1، 1998،ص11.

13- حنآ نصر الحتي ،مظاهر القوة في الشّعر الجاهلي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، د ت ،ص34.

14- ينظر: مُحَمَّد عبد المنعم خفاجي،الشعر الجاهلي،دار الكتاب اللبناني،بيروت،ط1973،2،ص92-93.

15- البيت لمعاوية بن مالك بن كلاب العامري(معمود الحكماء)،شاعر من أشراف الجاهلية ،ينظر ترجمته في كتاب:أبي غالب مُحَمَّد بن المبارك البغدادي،منتهى الطلب من أشعار العرب،دار الكتب العلمية،بيروت،لبنان،د ت، ج1ص277.

16- عمرو بن كلثوم ،الديوان،تح إميل بديع يعقوب،دار الكتاب العربي،بيروت،ط1، 1991ص90.

17- علي الوردي، الأخلاق الضّائعة من الموارد الخلقية، شركة دار الوراق، بيروت، لبنان، ط1، 2007، ص15.

18- ينظر: عفيف عبد الرحمن،الشعر وأيام العرب في العصر الجاهلي،دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان،ط1، 1984،ص67.

19- أحمد الشّايب، تاريخ الشّعر السّياسي إلى منتصف القرن الثّاني، مرجع سابق،ص31.

20- ينظر:علي الجندي،شعر الحرب في العصر الجاهلي،دار الفكر العربي،القاهرة،د ت،ص18.

21- لقيط بن يعمر الإيادي،الديوان،رواية أبي المنذر هشام بن مُحَمَّد السائب الكلبي، تح:خليل إبراهيم العطية، المؤسسة العامة للصحافة والطباعة، د ت ص50.46.

22- أبو منصور عبد الملك مُحَمَّد بن إسماعيل الثّعالبي النّيسابوري،لباب الآداب، تح: أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان،د ت، ص117.

23- حددت بعض القبائل القوية ديّات قتلاها،وفرضتها فرضا،فكانت تأخذ عن ديّة قتيلها ديّتين او أكثر أحيانا،وتدفع ديّة واحدة لغيرها ،وذلك بسبب قوّتها وبطشها، للمزيد ينظر:حنا نصر الحتي، مظاهر القوة في الشّعر الجاهلي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان،د ت، ص298.

24- كان من بين هؤلاء الأسياد من يصبو إلى تلك المكانة، وكان الزبرقان في زمن الجاهلية يرفع له بيت من عمائم وثياب ،وينضح بالزعفران والطيب وكانت بنو تميم تحج هدا البيت للمزيد ينظر:مُحَمَّد الخطيب، الدّين والأسطورة عند العرب في الجاهلية، منشورات دار علاء الدّين، دمشق، سوريا، 2004، ص78.

25- المرجع نفسه، ص37. 38.

26- ينظر:ناصر الدين الأسد،البطولة كما يصورها الأدب الجاهلي،مجلة آداب الكويتية،العدد الأول 20-28 ديسمبر1985،ص117.

27- شوقي ضيف،تاريخ الأدب العربي، العصر الجاهلي،دار المعارف،القاهرة،ط11، د ت،ص60.

28- أبو سعيد عبد الملك بن قريب الأصمعي،الأصمعيات،تح: أحمد مُحَمَّد شاكر،عبد السلام هارون،دار المعارف القاهرة،د ت،ص63،64.

29- ينظر:مُحَمَّد مهدي مجدوب،البطولة في الأدب الجاهلي،مجلة الآداب الكويتية،العدد الأول 20 ـ 28 ديسمبر 1985 ص38.

30- شوقي ضيف ،تاريخ الأدب،العصر الجاهلي،دار المعارف القاهرة،ط11،د ت ،ص62.

31- أبو عبد الله مُحَمَّد بن أبي المكارم(المعروف بابن المعمار البغدادي الحنبلي)، كتاب الفتوة، تح: مصطفى جواد وآخرين، مكتبة المثنى، مطبعة شفيق، بغداد، 1958. ص05.
32- عمرو بن كلثوم الديوان،تح: إميل بديع يعقوب،دار الكتاب العربي،بيروت ،ط1، 1991ً، ص91.
33- ينظر:محمود إسماعيل آل عمار،الجذور التاريخية لأدب الأطفال عند العرب،كتاب المجلة العربية 238، الرياض، السعودية، 2016، ص19.
34-المرجع نفسه ص 16.
35- ينظر: شوقي ضيف،الشعر وطوابعه الشعبية على مرّ العصور،دار المعارف، القاهرة،ط2، د ت،ص 18.
36- ينظر:أحمد سويلم،الشخصية العربية في التراث الأدبي،دار العالم العربي،القاهرة،ط1، 2010، ص16.
37-ينظر: حنا نصر الحيي، مظاهر القوة في الشّعر الجاهلي،مرجع سابق ص29.
38- طرفة بن العبد الديوان،شرح وتع: مهدي مُحَمَّد ناصر الدين،دار الكتب العلمية ،بيروت،لبنان،ط3، 2000، ص24.
39- الخنساء الديوان،شرح وتع:حمدو طماس،دار المعرفة،بيروت،لبنان،ط2، 2004، ص31.
40- المرجع نفسه: ص45.
41- ينظر: عمر بن كلثوم،الديوان، تح : إميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1991، ص10.
42- أبو تمام حبيب بن أوس الطائي،ديوان الحماسة،تح: أحمد حسن بسج،دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط.1، 1998، ص20.
43- نوري حمودي القيسي،الفروسية في الشعر الجاهلي،منشورات مكتبة النهضة،بغداد،ط1964،1،ص25.
44- ينظر: ريجيس بلاشير،تاريخ الأدب العربي (العصر الجاهلي) تر:إبراهيم الكيلاني، دار الفكر بدمشق ، د ت، ص.33.
45- ينظر: عمر الدسوقي،الفتوّة عند العرب أو أحاديث الفروسية والمثل العليا، مكتبة نهضة مصر بالفجالة، د ت، ص.29.
46- ينظر: شوقي ضيف، تاريخ الأدب(العصر الجاهلي)،دار المعارف،القاهرة،ط11، د ت،ص366.
47- عامر بن الطّفيل،الديوان (رواية أبي بكر مُحَمَّد بن القاسم الأنباري، عن أبي العباس أحمد بن يحي ثعلب)، دار صادر بيروت، 1979، ص13.
48- السموأل الديوان،تح وشرح:واضح الصمد ،دار الجيل،بيروت،ط1، 1996،ص70-73.
49- أبو تمام حبيب بن أوس الطائي،ديوان الحماسة،تح: أحمد حسن بسج،دار الكتب العلمية ،بيروت ،لبنان، ط1، 1988، ص.33-34.
50- ينظر: بطرس البستاني، أدباء العرب في الجاهلية وصدر الإسلام، دار الجيل، بيروت، لبنان، د ت، ص.46.
51- أبو عبد الله مُحَمَّد بن عمران المرزباني،تح: سامي مكي العالي،هلال ناجي،عالم الكتب،د ت.ص 106.
52- الخنساء،الديون، شرح وتح: حمدو طماس، دار المعرفة، بيروت،لبنان، ط2، 2004، ص31.
53- يشير الغذامي إلى الدور الذي تلعبه المؤسسة العلمية والثقافية في توجيه الخطاب والقراء معا نحو نماذج وانساق وتصورات يتأسس معها الذوق العام ،وتتخلق بها الصياغة الذهنية والفنية،وتصبح تبعا لذلك قيما معتمدة،للمزيد ينظر: عبد الله الغذامي،النقد الثقافي(قراءة في الأنساق الثقافية العربية)المركز الثقافي العربي، المملكة المغربية،الدار البيضاء،ط2005،3،ص 35.
54- نوري حمودي القيسي، الفروسية في الشعر الجاهلي،منشورات مكتبة النهضة، بغداد،ط1 ص54.، 1964.
55- أبو تمام، حبيب بن أوس الطائي، ديوان الحماسة، شرح وتح: أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط.1، 1998، ص31.
56- الخطيب التبريزي، شرح ديوان عنترة، تقديم مجيد طراد، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1992، ص.116.